المسألة اليهودية
ديستوفسكى

كتب ديستوفسكى فى يومياته التى سجلها ١٨٧٧ ، رسائل جاءته من بعض اليهود فى روسيا ، وردوده عليها ، ورؤيته للمسألة اليهودية ، فنقتطف بعضها فيما يلى :

الرسالة الأولى

... على أننى أعتزم التطرق إلى موضوع لا يتيسر لى تفسيره مطلقاً ، إنه مقتك للجييد * الذى يتجلى فى كل عدد ينشر من يومياتك تقريباً. ليتنى أعرف لماذا تتصدى للجييد ولا تنبرى للفرد ممارس الاستغلال بوجه عام ؟ إننى ـ شأنك ـ لا أطيق المعتقدات البالية لأمتى ـ فقد عانيت منها ما عانيت ـ لكننى لا أتفق وإياك إطلاقاً فى أن الاستغلال السافل يجرى فى دماء هذه الأمة .

هل يُعقل أنك تعجز عن الارتقاء إلى القانون الأساسى لكل حياة اجتماعية ، وهو أن كل رعايا الدولة الواحدة دون استثناء ، إذا كانوا يتحملون كل الواجبات والفرائض اللازمة لوجود الدولة ، يجب أن يتمتعوا بكل الحقوق والفوائد الناجمة عن وجودها ، وأن كل الخارجين على القانون ، كل العناصر الضارة فى المجتمع يجب أن تنال نفس القدر من العقوبات المتكافئة بالنسبة للجميع ؟ بم يمتاز استغلال الأجانب ـ واليهود من رعايا روسيا على أية حال ـ على الاستغلال الجييدى ؟ فيم يكون الإقطاعيون والمستثمرون ومصاصو الدماء والقساوسة الأرثوذكس الروس الذين تزخربهم روسيا بأسرها خيراً من أولئك الجييد الذين يمارسون نشاطهم داخل نطاق محدود ** . بمقدورى أن أطرح ألوفاً من الأسئلة المماثلة . فيما نجدك تتحدث عن الجييد ، إنما تدرج ضمن هذا المفهوم

---

* الجييد : كلمة قديمة فى الروسية تعنى اليهودى . وفيها شئ من اللمز .

** المناطق التى حُددت إقامة اليهود فيها ، فى روسيا القيصرية .

كل الجمهور المريع فى بؤسه وشقائه ، وهم **أنقى خلقيا** لا من سائر الأقوام فحسب ، بل ومن الشعب الروسى الذى تبجله . كما تقحم فى هذه التسمية حتى ذلك الرعيل المجيد من اليهود الذين نالوا التحصيل العالى وبرزوا فى جميع معتركات الحياة الرسمية ، ممن يعملون لما فيه خير المجتمع والبشرية . إن بغضك للجييد ينسحب حتى على دزرائيلى الذى لا يعدم أن يجهل هو نفسه حقيقة كونه سليل اليهود والإسپان ، وهو الذى لا يدير طبعاً دفة السياسة الإنجليزية المحافظة من وجهة نظر الجييد .

كلا للأسف أنت لا تعرف الشعب اليهودى ، ولاحياته ولا روحيته كما لا تعرف - أخيراً - قرون تاريخه الأربعين . أقول للأسف ، لأنك إنسان صادق حقاً ونزيه كل النزاهة ، على أنك تلحق - دون وعى أو قصد - ضرراً بجماهير غفيرة من شعب مبتل بالتعاسة . أما الجييد الأقوياء الذين يستقبلون دهاقنة العالم فى صالوناتهم ، فلا يخشون الصحافة - بالطبع ولا حتى السخط العاجز لضحايا الاستغلال - ولكن كفانا حديثاً ، فلن أفلح فى إقناعك برأيى ،لكن أتوق جداً أن تقوم أنت بإقناعى .

رد ديستوفسكى

هذه الأسطر كتبها شخص متعلم وموهوب فعلاً - رغم أننى لا أعتقد أنه براء من الترسبات الموروثة - فأى مشاعر تجاه الفرد الروسى يمكن انتظارها إذن من اليهود غير المتعلمين وهم بهذه الكثرة ؟

قولى هذا ليس اتهاماً ، فتلك مسألة طبيعية . أود فقط القول أن المسئول عن دوافع حالة العزلة والفراق مع اليهود قد لا يكون هو الشعب الروسى وحده ، بل إن هذه الدوافع تراكمت بالقطع من الطرفين ، كما لا يعلم أحد بعد أى الطرفين أكثر ذنباً . إثر هذا القول أود الإدلاء ببعض التصورات لأثبت براءتى .

لنفترض أن من العسير جداً الإحاطة بأربعين قرنا من تاريخ سلالة كاليهود ، لكننى أقول من باب الحيطة : إننى أعلم حق العلم أن **ما من شعب آخر فى هذا العالم يفرط من الشكوى من نصيبه والتظلم من هوانه وتعاسته وعذابه فى كل لحظة ، وفى كل خطوة يخطوها ، أو كلمة يتفوه بها .** ماوجه المصيبة فى أنهم لا يحكمون أوروبا ولايديرون بورصاتها - ولو البورصات فقط -

أى بالتالى سياسة دولها وأخلاقياتها وشئونها الداخلية . أنا مستعد للتصديق بأن دزرائيلى نفسه ربما نسى أنه سلسيل الجييد الإسپان ـ أُرَجِّح أنه لم ينس ذلك ـ أما أنه كان يدير دفة السياسة الإنجليزية من وجهة نظر الجييد ـ بقدر ما خلال السنة الأخيرة ، فتلك ـ لعمرى ـ مسألة لا يرقى إليها الشك .

عندى أن القروى الروسى ، بل والإنسان الروسى البسيط ينوء بما يكاد يفوق أعباء الفرد اليهودى .

يقول مراسلى فى رسالة أخرى :

قبل كل شئ ، لابد من أن يُمنحوا (أى اليهود) كل الحقوق المدنية ـ تصور أنهم مازالوا محرومين من أبرز حق لهم ، ألا وهو حرية اختيار محل الإقامة ، الأمر الذى تترتب عليه سلسلة كاملة من المضايقات ـ إسوة بسائر الأقوام الغربية فى روسيا ، بعدئذ يمكن مطالبتهم بأداء واجباتهم تجاه الدولة والسكان الأصليين .

رد ديستوفسكى

تصور فقط أيها السيد المرسل أن الفرد اليهودى حين ـ عانى من غياب حرية اختيار محل الإقامة ـ كان ثم ثلاثة وعشرين مليونا من الروس الكادحين يعانون أوضاع القنانة ، وهو أدهى وأمر من اختيار محل الإقامة . هل أشفق اليهود عليهم ؟ لا أعتقد . بوسعكم الحصول على جواب شافى عن هذا السؤال فى جنوب روسيا وفى إقليمها الغربى . كلا بل كانوا ـ كما يفعلون الآن تماماً ـ يندبون حقوقاً لم ينلها الشعب الروسى نفسه . ودأبوا على العويل و الشكوى أنهم مظلمون ومعذبون .

ولكن ها قد جاء المنقذ وحرر الشعب الأصلى ، فماذا كانت النتيجة ؟ من بادر إلى الانقضاض عليه كمن ينقض على فريسة ؟ من قيده بأغلال حرفته الأزلية ؟ حرفة الاستحواذ على الذهب ؟

قرأت تواً فى عدد آذار من « بشير أوروپا » ما يفيد أن اليهود فى الولايات الجنوبية من أمريكا قد انقضوا بكل ثقلهم على الملايين الكثيرة من الزنوج المعتوقين ، واستحوذوا عليهم بأساليبهم الخاصة ، بحرفتهم الأزلية المعروفة ، مغتنمين نقائص الجمهور المسحوق وقلة خبرته . ما أن قرأت هذا النبأ حتى تذكرت أن هذه الفكرة خطرت

لى قبل سنوات خمس . وقتئذ قلت لنفسى : عند تحرر الزنوج من ربقة ملاك الرقيق ، لن يُقيض لهم الافلات ، فسوف ينقض على هذه الضحية الطازجة اليهود . إن هؤلاء الزنوج كنز لا يعوض بالنسبة لليهود ، فهل سيفوتون الفرصة ؟ وها قد صدقت توقعاتى . قبل عشرة أيام اطلعت فى « الأزمنة الحديثة » العدد ٣٧١ ، على رسالة من كوفنو تنطوى على دلالات بليغة . جاء فى الرسالة : إنقض اليهود على سكان ليتوانيا . هب المتنورون من الاقتصاديين المحليين وطفقوا يؤسسون المصارف الريفية لإنقاذ الشعب من براثن المرابين اليهود ، ويفتحون أسواقاً ريفية كى يتسنى للجمهور المسكين الكادح الحصول على الضروريات بالأسعار الفعلية ، لا بتلك التى يحددها اليهود .

أنا لا أقدم هذين الجزئين من « بشير أوروبا » ، « الأزمنة الحديثة » على أنهما من الوقائع الحاسمة والعظيمة الشأن . فلئن بوشر بتدوين تاريخ هذه الطائفة العالمية ، فلسوف يتسنى فوراً وضع اليد على مائة ألف من القرائن ، بل وأكثر من تلك خطورة .

بديهى أنهم « اليهود » سيرون أن الجميع يغلون بغضاً ، وبالتالى فالجميع يكذبون . لايُعدم ـ طبعا ـ أن يكذب الجميع دون « استثناء » ، على أن سؤالاً آخر ينبثق فوراً : إذا كان الجميع دون استثناء يكذبون ، والجميع يغلون بغضاً ، فلابد لهذا من منشأ !

إن أبناء شعبنا البسطاء لايضمرون أى بغض دينى مبيت سلفا لليهود ، لقد لمست ذلك طوال خمسين عاماً ، حيث قُيض لى أن أعايش الشعب وأشاطره المكوث فى السجون والنوم على الأسرة الخشبية . كان بيننا نفر من اليهود لم أر أحداً يحتقرهم أو يتحاشاهم أو يطردهم . ولكن ماذا رأيت ؟ هؤلاء اليهود كانوا يتحاشون الاختلاط بالروس ويرفضون تناول الطعام معهم ويعاملونهم ببعض الاستعلاء ، وأين يجرى هذا ؟ فى السجن !

فيما أسرح ـ أنا أحيانا فى الخيال : ماذا لو كان الروس ـ لا اليهود ـ ثلاثة ملايين نسمة فى روسيا ، واليهود ٨٠ مليون ؟

ما سيؤول إليه مصير الروس بين ظهرانيهم ؟ ... هل ... هل ... هل ...

هل كانوا سيسلخون جلودهم ويسومونهم سوء العذاب حتى يمحوهم ، حتى يبيدوهم عن بكرة أبيهم ، كما كانوا يفعلون بالأقوام الأخرى فى العصور الغابرة من تاريخهم العريق ؟

يتحدث بعد ذلك ديستوفسكى عن اليهود ، وكيف أنهم فى كل دولة حطوا فيها ، أقاموا دولة فى الدولة :

بوسعنا أن نتصور بعضاً من ملامح هذه « الدولة فى الدولة » الانعزال والانطواء على صعيد المعتقدات الدينية المتحجرة ، الانغلاق والإيمان بأن ليس ثمة شخصية آدمية سوى الفرد اليهودى . أما الآخرون - وإن كان لهم وجود ، فينبغى - رغم ذلك - تجاهل هذا الوجود : « **تنح عن الشعوب وكون هويتك الخاصة ، وأعلم أنك منذ الآن الوحيد لدى الرب ، أما الآخرون ، فافتك بهم أو اجعلهم عبيداً ، أو سخرهم . آمن بالنصر على العالم أجمع ، آمن بأن كل شئ سيرضخ لك . كن صارماً فى ازدراء الجميع** » .

هذا هو جوهر فكرة « الدولة فى الدولة » ، ثم هناك بالطبع قوانين داخلية ، ولربما سرية تصون هذه الفكرة .

إن مجمل نشاط اليهود فى هذه الديار ، توريط السكان الأصليين - قدر المستطاع - فى تبعية لهم ، منتفعين من القوانين المحلية . **وهم يتقنون باستمرار عقد عرى الصداقة مع من تتوقف عليه مصائر الشعب** .

إن المسيحية وفكرتها انهارت وتنهار هناك (فى أوروبا) ، لايسعنا إلا أن نشير إلى الانتصار القومى الذى حققه اليهود فى أوروبا أيضا ، حيث أحلوا أفكارهم محل الكثير من الأفكار القديمة . صحيح أن الإنسان كان يبجل المادة مدى الدهر ، ويميل إلى رؤية الحرية وفهمها متمثلة حصراً فى النقود التى ادخرها بكل قواه واحتاط لها بشتى السبل ، ولكن لم يسبق لهذه الأطماع أن صورت بمثل هذه الصراحة ، وبمثل هذا الوعظ بأنها المبدأ الأسمى ، كما جرى فى قرننا التاسع عشر . صحيح أن هذا كان موجوداً فى الماضى . وبإستمرار طبعاً ، بيد أن أحداً لم يرفع هذه الأمور إلى مستوى العلم والحقيقة السامية ، كما أن المسيحية شجبتها . أما الآن ، فعلى العكس إنها ترفع إلى مصاف الفضيلة . إذن ليس اعتباطا أن يستولى اليهود هناك على البورصات فى كل مكان ، ليس اعتباطاً أن يتحكموا برؤوس الأموال ، ليس اعتباطاً أن يكونوا أرباب القروض ، وأكرر ليس اعتباطاً أن يكونوا أيضا أرباب السياسة الدولية برمتها .

أما الذى سيحدث فى المستقبل ، فهو أمر معلوم ، بالطبع ، لدى اليهود أنفسهم ، وهو أن سلطانهم يقترب ، سلطانهم المطلق .

اليهودى يهوى المتاجرة بمجهود الآخرين ! لكن كل هذا لا يغير شيئا بعد ، فى حين يبسط وجهاء اليهود سلطانهم على البشرية ، وبمزيد من الشدة والرسوخ ، ويسعون لإضفاء هويتهم وجوهرهم على العالم ، فيما يستمر اليهود بالصراخ : إن ثمة اناسا طيبين بيننا . أعوذ بالله ! هل هذا هو صلب الموضوع ؟ نحن لم نعد نتحدث عن الناس الطيبين والسيئين . أفلا يوجد بين الآخرين أناس طيبون ؟ نحن نتحدث عن عموم الموضوع وفكرته . نحن نتحدث عن الچييدية والفكرة الچييدية التى تجتاح العالم بأسره عوضاً عن المسيحية الخائبة .

* * *

بعد هذه المقتطفات من يوميات ديستوفسكى ، نذكر فقط أنه سجلها عام ١٨٧٧ !

obeikandl.com